أبحاث في تاريخ العبودية والموجات الاستعمارية

د. مظهر محمد صالح *- لمحات في تطور اقتصاديات العبودية حتى المرحلة الثالثة: العبودية والعلم الكئيب

١-تمهيد

العبودية المخففة او العبودية نصف المحررة او الدفاع عن الشيطان تحت شعار العلم الكئيب dismal science جاءت تجسيداً لتسويغ مرحلة العبودية الثانية[1] كما يراها العلم الكئيب (اي علم الاقتصاد) قبل دخولنا في مرحلة العبودية الثالثة في القرن الحادي والعشرين.

ففي خطاب عرضي حول مسالة الزنوج صدر في العام 1849 اي بعد انتهاء العبودية البريطانية الاولى في العام 1807،[2] جاء توماس كارلايل Thomas Carlyle وهو يلامس بشكل خجول افكار عالم الاقتصاد مالثوس Malthus في كتابه الصادر في العام 1798 (في مبادئ السكان) ليستخدم عبارة (العلم الكئيب dismal science) ويطلقها على علم الاقتصاد كعلم سلوكي، واقصد هنا ما اثاره الكاتب والمؤرخ الاسكتلندي (توماس كارلايل) في مؤلف صدر له تحديداً في العام 1849، اي في قرابة منتصف القرن التاسع عشر، بعنوان (خطاب عرضي حول مسالة الزنوج). وقد صدر الكتاب بالتأكيد بعد سنوات من العام 1807، عام التحرر من العبودية الاولى في بريطانيا emancipation، حيث جادل باستعادة (العبودية الثانية) تحت نقد العلم الكئيب ومخاوف المالثوسية ولاسيما في مناطق انتاج الغذاء،

[1] للتعريف بالمراحل الثلاثة للعبودية راجع "روبن بلاكبيرن: تصفية الحساب: من العبودية الثانية إلى الإلغاء، 1776-1888"، موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين، هامش ص 1 (المحرر)
روبن-بلاكبيرن-تصفية-الحساب-من-العبودية-الثانية-إلى-الإلغاء،-1776-1888 pdf. (iraqieconomists.net)

[2] هناك بعض التفاصيل عن إلغاء العبودية في دراسة مهمة لمصباح كمال بعنوان "التأمين والعبودية: فصل بغيض في تاريخ التأمين الرأسمالي،" موقع شبكة الاقتصاديين العراقيين: Misbah-Kamal-Sordid-Chapter-in-the-History-of-Capitalist-Insurance-1.pdf (iraqieconomists.net) ص 10-11.

وهي جزائر الهند الغربية، بغية رفع انتاجية المستعمرات. انه علم اكثر من كئيب كما عبر عنه مالثوس من قبل و كارلايل من بعد، بل انه اتجاه مقرف وحقير ومثير للقلق في تسويغ العبودية كما يريد البعض تسميته؛ أي جاءت تسمية الاقتصاد بالعلم الكئيب dismal science كطريقة مهذبة للفضيلة في مرحلة العبودية الثانية.

وبهذا تأثر (كارلايل)، بعبارة العلم الحزين او الكئيب gloomy science وهي العبارة التي استوحاها حقًا من كتاب مالثوس في وقت سابق كما ذكرنا اذ أثار مالثوس في العام 1798 في كتابه المشار اليه انفاً بالقول: إن السكان سينمون دائما بشكل اسرع من الغذاء، مما يقضي على البشرية في المشقة والجوع بشكل لا ينتهي.

من جانب آخر، ومن قبيل الصدف، قيل ان استخدام عبارة (العلم الكئيب) للكاتب كارلايل جاءت بالأساس ردا على جون ستيوارت ميل John Stuart Mill احد كبار اقتصادي القرن التاسع عشر من المدرسة الليبرالية التقليدية في الاقتصاد اذ عد Mill إن تقدم الامم وغناها وتراجع البعض منها كان بسبب قوة او ضعف المؤسسات institutions ويقصد بشكل مبطن غذاء انتاج المستعمرات بقوة العبيد الزنوج وعمل السخرة وهو سبب تقدم وتراجع الامم في موضوع تراكم راس المال التاريخي historical capital accumulation، اي كما كان يرى ذلك بنفسه هذا الاقتصادي الكلاسيكي الليبرالي اي جون ستيوارت ميل John Stuart Mill في اطروحته التي سوّغ فيها العبودية بكونها رافعة لتعظيم التراكم الرأسمالي التاريخي. وحسب كارلايل، كان ميل Mill يريد ان ينكر قضية العبودية بشكل مبطن. الا ان كارلايل ظل يلحظ ان هناك عبودية مخففة نصف محررة وهو دفاع عن الشيطان كما يقال وهي تفسير للعبودية الثانية، اذ بدأت مقالة كارلايل بوجهة نظر قامت على اساس الدفاع عن الشيطان، التي تحدث فيها عن العبودية المخففة بكونها حركة خيرية (منافقة) من اجل تحرير عبيد جزائر الهند الغربية والتي قامت على انتاج السكر في مزارع العبيد كما سنتناوله في ادناه.[3]

[3] من المناسب أن ننقل هنا ما كتبه آدم سميث عن العبودية التي كان معارضًا شديداً لها: "لا يوجد زنجي من سواحل إفريقيا لا يمتلك درجة من الشهامة والتي نادرًا ما تستطيع روح سيده الدنيء أن تفهمها. إن القَدَر لم يفرض سطوته أبدًا على البشرية بشكل أكثر قسوة مما كانت عليه عندما أخضعت تلك الأمم من الأبطال لخَبَث سجون أوروبا." (نقلاً عن مقالة للاقتصادي مايكل روبرتس بعنوان "آدم سميث: داعية للسوق الحرة أم فيلسوف

٢-زواج السكر بالعبودية: (التراكم الرأسمالي الامبريالي الجديد)

على الرغم من الغاء العبودية في المستعمرات البريطانية بحلول العام 1807، وفي بقية الامبراطورية البريطانية بحلول 1833، فقد استمرت كوبا وبرازيل بممارسة العبودية حتى العام 1838 وهو ما يسمى (بالعبودية الثانية) والتي ظهرت مرة ثانية على جدران العلم الكئيب dismal science في وصف مالثوس لعلم الاقتصاد، اذ ظل الكاتب كارلايل يفكر في العبودية الثانية تحت تأثير مالثوس Thomas Malthus نفسه بكتابه An Essay on the Principle of Population (1798) الذي قال فيه، كما ذكرنا، ان السكان ينمون الى درجة يقضون فيها على نمو الغذاء وهو ما يقود الى الفقر والمرض والجوع والتدهور الاقتصادي والحروب وبلوغ حالة calamity اي المصيبة.

هكذا هي العبودية في مرحلتها الثانية تحت نظرة مخففة في علم الاقتصاد سميت عند كارلايل Carlyle بالعلم الكئيب في نقد جون ستيوارت ميل في العبودية الاولى والالتصاق بمخاوف مالثوس ربما لتسويغ العبودية الثانية ولكن تحت مسمى العلم الكئيب كما ذكرنا.

ويلحظ كم نحن مدينين في تناولنا لأقداح الشاي الاسود، وهو يغرق ببلورات السكر الابيض اليوم، لأولئك الرجال السود الذين سرقهم البيض من القارة السمراء بما فيهم ذلك الصبي الذي انتزعه البيض من ذراعي امه وهي تصرخ ليلقوا به في سفن صيد البشر التي حطت بوحشيتها على شواطئ افريقيا الغربية وهي متجهة الى العالم الجديد من دون رحمة!. فحتى تاريخ يوم تحريم العبودية في بريطانيا في العام 1807، كان عدد الأفارقة الذين جرى صيدهم وترحيلهم الى العالم الجديد بحراً قد بلغ 11 مليون انسان وان نصفهم قد انتهى في مزارع قصب السكر وان الملايين قد قضوا نحبهم عند محاولتهم الفرار والرجوع الى اذرع والديهم او زوجاتهم في القارة

أخلاقي؟" https://thenextrecession.wordpress.com/2023/06/29/adam-smith-free-marketeer-or-moral-philosopher/ (المحرر)

أبحاث في تاريخ العبودية والموجات الاستعمارية

السمراء. يقول المؤرخ والسياسي الأمريكي اللاتيني (أريك وليامز): "إن العبودية لم تولد من رحم العنصرية، بل ان العنصرية ولدت من رحم العبودية." لقد توج القرن الثامن عشر نهاية زواج العبودية الاولى بالسكر، بعد ان استعمرت اكثر جزر البحر الكاريبي، وان الجانب الاكثر دموية كان ما يسمى بالتجارة المثلثة للسكر، حيث أخذت السفن التجارية للأوروبيين البيض المحملة بالسكر وهي تجوب سواحل افريقيا الشرقية هذه المرة لمبادلة السكر مقابل العبيد ليزج بهم في مزارع السكر في العالم الجديد ثانية ولاسيما في مناطق الكاريبي والبرازيل وغيرها والتي سميت في التاريخ الاقتصادي: (بدورة السكر-العبودية).[4] تقول الكاتبة والمؤرخة الكندية (اليزابيث آبوت) في كتابها الصادر في العام 2008 والموسوم (السكر: مرارة الحلوى) وهي تنقل نصاً لأحد القادة العسكريين واسمه وليم فوكس، ممن ركب البحر، وهو يتناول خطيئة اوروبا ليجسد احساسه بالشعور المخجل والمرارة لما جرى للإنسانية السوداء باصطياد الجنس الاسمر من القارة الافريقية واستعبادهم كقوة عمل في مزارع قصب السكر فيما سمي بالعالم الجديد، ما ذكره فوكس بالقول: "إن كل باون (سكر) يجب ان ينظر اليه على انه جاء من اقتطاع اونسين من لحم البشر!

ومع تطور الزمن وتصاعد الطلب العالمي على السكر وتحوله من صنف التوابل، لندرته في القرون الماضية، الى مادة خام غذائية تستهلكه الطبقات المتوسطة والفقيرة، تزايد انتاج السكر واستهلاكه عالميا وبشكل لافت، حيث غدا انتاج العالم السنوي من السكر في الوقت الحاضر يزيد على 160 مليون طن متري، في حين لم يتعد انتاجه العالمي السنوي في العام 1900 سوى 14 مليون طن متري، وكانت حصة المواطن البريطاني او الاميركي منه لا تتعدى 21 كيلوغراماً سنوياً في مطلع القرن العشرين. ارتفعت حصة (المواطن الاميركي) اليوم، على سبيل المثال، الى 35 كيلو غراماً سنوياً او ما يعادل 22 ملعقة شاي ممتلئة بالسكر يومياً. وتعد البرازيل في طليعة البلدان المنتجة للسكر في العالم، حيث تستحوذ على انتاج اكثر من 20 بالمئة من الانتاج العالمي منه وتصدر قرابة 42 بالمئة من حاجة العالم اليه.

[4] التجارة المثلثة كان يقوم على شحن الأسلحة والمنسوجات والنبيذ من أوروبا إلى أفريقيا، والعبيد من أفريقيا إلى الأمريكتين، والسكر والتبغ ومنتجات أخرى من الأمريكتين إلى أوروبا. وكان للدولة البريطانية، من خلال سفنها الحربية، دور في حماية هذه التجارة من القراصنة. (المحرر)

كما ان 72 بالمئة من السكر ينتج من القصب لا سيما في المناطق المدارية وشبه المدارية من العالم وان البنجر السكري الذي يوفر اكثر من 12 بالمئة من انتاج العالم للسكر يزرع في المناطق الباردة المطرية. وتعد الهند ثاني اكبر منتج للسكر في العالم وتستحوذ على 14 بالمئة من انتاجه العالمي، يليها الاتحاد الاوروبي وتايلند وبواقع انتاج بلغت نسبته 11 بالمئة لكل منهما على التوالي واستراليا بواقع 8 بالمئة سنوياً.

٣- عولمة الفقر: حوار مشرقي في العبودية الثالثة Third Slavery

حاورني رجل مشرقي قبل سنوات قليلة وهو يخشى عولمة الفقر والفاقة في بلداننا التي ترزخ تحت نيران الليبرالية الجديدة بالقول: ان المستقبل ليس خطا مستقيما، واني اخاف الفقر والظلام والمجهول والموت. اجبته ما الذي جعلك تفكر وكأنك في مطلع القرن التاسع عشر عندما كان اكثر من نصف سكان الارض قد ثلمت انسانيتهم بين عبد او خادم كما اخبرنا التاريخ الاقتصادي للعبودية الثانية؟ أجابني مهموماً: الخوف على اولادي من عولمة الفقر والفاقة! فمنذُ العصر الخالي وحتى القرن الحادي والعشرين لم تنفك البشرية من العبث في الجنس الانساني والتصرف به كسلعة في قبضة سوق العمل السوداء.

انها سوق العبودية التي لاتزال تمسك بأظافرها الحديدية بنحو 30 مليون انسان/عبد حتى اللحظة، وهم ممن انتهى بهم الامر الى حُجر الحياة المغلقة وانهم غدوا لا يخافون من شيء بعد ان هجرتهم الحياة وجف معينها ليحتضنهم جنس آخر كالح الوجه ينتظر من ضحيته ان يفرغ عرقه جاهداً في وعاء العبودية الجافة وفي سيناريوهات داكنة لانهاية لها. قلت له نعم، فالعبودية هي نظام يعامل الناس كسلعة مملوكة تخضع للبيع والشراء وتجبرهم على العمل ضد ارادتهم، سواء منذ الولادة او عند الشراء او هم تحت ارادة القوة المستغلة لهم وحرمانهم من حق المغادرة وحق رفض العمل وحق التعويض. قال: ألا ترى ان الاكراه على الزواج وتشغيل الاطفال الذي بلغ عددهم اليوم بنحو 250 مليون طفل مشتغل في سوق العمل الرخيص في العالم بين سن الخامسة وحتى دون سن الخامسة عشر، فضلا عن تجنيد بعضهم على حمل السلاح، هو نمط من انماط العبودية؟ قلت له نعم وان

جنوب آسيا لاتزال حتى اللحظة تستعبد الجنس البشري في سداد الديون، وان اغلب حالات العبودية في آسيا تأتي استيفاءً للديون. ويلحظ ان العمل الاجباري يعد شكلاً من اشكال العبودية ابتداءً من تشغيل السجناء بأعمال السخرة وانتهاءً بأشكال العبودية المعروفة تقليدياً.

لقد امسى الاتجار بالبشر والعبودية واحدة من المشكلات الكبرى في الاقتصاد العالمي الحديث. وان عشرات المليارات من الدولارات قد جرى تحصيلها منذ مطلع الالفية الثالثة وحتى اليوم في التجارة البشرية. اذ لايزال تجار العبيد حتى اليوم في مناطق حوض الكونغو يقومون بخطف النساء والرجال ومن ثم يجري ابتياعهم في اماكن بعيدة ليمضوا حياتهم جبراً عند اسيادهم الجدد بعيداً عن اهلهم. ويلحظ ان البعض يُجبر على هجرة وطنه عبر إغراءات عصابات منظمة وتحت ذريعة البحث عن العمل لهم في اماكن خارج بلدانهم ليتم بيعهم كعبيد افتراضيين لقاء تكاليف نقلهم ومصاريف إيصالهم الى اماكن العمل البعيدة ومن دون توافر القدرة على العودة. وان النساء هن الجانب الاكثر ظلماً في هذا المسار، فعودتهن الى اوطانهن بسبب العمر او المرض يعني تعرضهن لمشكلات غسل العار وغير ذلك من اعمال الابادة الوحشية.

انه الخداع الامبريالي في تسويغ العبودية الثالثة لتعظيم التراكم الرأسمالي التاريخي مجددا في قرن الامبريالية في عصرها الرقمي الحادي والعشرين.

٤- السكر كمصدر للوقود

ظل العالم، وحتى نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، ينظر الى السكر نظرة استراتيجية وعلى غرار ما ينظر الى النفط ودوره الآن في السوق العالمية. وان البرازيل التي اضحت المنتج الاول في العالم للسكر هي من يقود العالم في الوقت الحاضر في تحويل السكر الى وقود اخضر (إيثانول) والذي يباع في محطات الوقود في تلك البلاد، وان غالبية محركات السيارات المستخدمة في البرازيل تعمل حالياً بالوقود المزدوج (الإيثانول او البنزين).

٥- خاتمة

اذا ما قام الاتحاد الاوروبي واميركا برفع التعرفة الكمركية عن (الإيثانول) البرازيلي المنتج من قصب السكر، فإن السكر ربما قد يعود الى سابق عهده وتصبح اهميته كأهمية الوقود اليوم في اسواق الطاقة شريطة ان يتبدل لون السكر من الابيض الى الاسودّ كي ينتفي التراكم الرأسمالي التاريخي الذي قام على العبودية كقوة منتجة ويتخلى عن وتيرته الاستغلالية وتعوض افريقيا السوداء التي نكبت بشبابها، وافرغت من قوة عملها المنتجة في القرون الماضية، تعويضاً عادلاً لها، ثمنه قيمة (الإيثانول) المنتج من سكر العبودية الافريقية لتنهض في استثمار ثروتها البشرية مجدداً في عصر اقتصادي اكثر عدالةً وانسانيةً.■

(*) باحث وكاتب اقتصادي أكاديمي ومستشار رئاسة الوزراء للشؤون المالية والاقتصادية

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر. 9 أيار 2024

http://iraqieconomists.net/ar/